إهـداء

إلى ساكن طيـات فؤادي تايهونـغ، وإلى جميع أصدقائي الأعزاء الذين طالما كانوا عاملًا حفَّازًا لي وساندونـي، شكرًا لكم جميعًـا؛ فلولاكم ما كنت هنا.

مقدمـة

يا ساكن القلب لا تُبرح نواحيـهِ؛ فـأنت من نبضـه بالقـرب تحيـه، لـو كان لـديك شـكٌ أننـي بعـد الحرب أنسـاك، فـأقسـم لـك أنـك لا تغيـب عن فكـري مذ أخـذوك مني، وكـيف أنسـى، هـل ينسى المحب حبيبـه؟

أيـا دفء في زمهرير الشتـاء.

ديسمبر

لـقد أتى ديسمبـر ثانية، أتى بـكل الآلام معـه!!
فـي مثـل هذا اليوم انقلبت موازين حيـاتي؛ لأنـه اليوم المشؤوم الذي قطع وصـال الأحبة.
أتذكّر هذا اليوم عندما جلست القرفصاء أحتضن ساقاي؛ خوفًـا من تلك الأصوات الغريبة التـي علت في الخارج، والذي زادني خوفًـا أن حبيبُ فـؤادي في الخارج، استمر هذا الحال خمسة عشر دقيقة، وبعدهـا فرت شهقة من فاهي؛ عند سماعي لـصراخ الأهالي ونحيبهم، رباه!
كـفكت دموعي بحرقة وأخذت أدعوا بكـل قواي، "ربـي يا من نجَّيت يونس من بطـن الحوت، ونوح من الغرق، احفظه ياخالقي، وأرجعه لي سالمًـا آمنًـا، ولا تريني فيه ضرًا ياربي"

ثـم أخذت الدموع مجراهـا وأتذكر هذه الليلة أنني غفلت ولم أدرك شيئًا حولي.

ارتعشت أطرافي لتلك الذكرى، مرّت ثلاث سنوات على هذا اليوم ولم أرى لـه طيف، أتعلمون كيف مرّت تلك السنوات علىّ؟ كملمس الجمر، كحرقة فؤاد أم فقدت فلذة كبدها الوحيد، كجسد بلا روح.

أمسكت الأوراق التي أكتب لـه فيها؛ علَّه يراها يومًـا ويعلم كم أحاط بي الألـم عند فقدانـه.
"أكتب لـك الآن رغـم يقيني بأنـك لاتقرأ، أكتب لأن الألم بلغ منتهاه، أكتب لترى ماذا خلَّـف رحيلك، وأدمعـي تخذلني في منتصف الحديـث، قلت لي يومًـا أن كل مُناك أن تبقى بسمتي لاتفارق شفتاي؛ لكـن فارقتهـا يا عزيز؛ فرحيلك جعل كـل إنش بداخلـي يتـألم، والشحوب سيطر على ملامحي. حيـن اذرف أدمعي لا أجدك لتطبطب علىَّ وأتكئ على كتفك، رغمًا عني أقف على الحد؛ أنتظر عودتك، ولـم أقنط يومًا، كما قلت لـي أن أكون

حليمة في الشدائد، وأيم اللَّه ياحبيب لو العالم كله أجمع على أنك لن تأتي لم ولن أقنط؛ فأنا على يقين بأن اللَّه لن يخذلني؛ لأني ذكرتك في كل سجدة سجدتها لربي.
وأخيرًا يامهجة فؤادي، حفظك اللَّه في رعايته."

قمت من مهجعي، أترك جسدي لقدمي تحملني، دلفت إلى شرفتي، وعند رأياي لتلك الشجرة رأيت شيئًا، هناك بثرة في الأرض عند منتصف الشجرة!
ارتديت جلبابي وانطلقت مباشرةً نحو الشجرة، أخذت أدفع الأتربة علِّ أرى شيئًا تبقَ منه؛ لكن خاب ظني، وقفت قانطة ودلفت للمنزل مرة أخرى، أشعر بحزنٍ طاغي، من تبقى لي؟ أمي وأبي توفاهم اللَّه، وهو زوجي ورفيق مسكني، ثلمة فؤادي وبهجته وكل ما تبقى لي لا أدري عنه شيئًا، رباه رحمتك!

يا شتاء ديسمبر احملي له كلماتي عبر نسمات هوائـك البارة.

استيقظت، إنه يوم الجمعة، الساعة على مقربة من الثالثة فجرًا، والسكون يحتل المكان.

دلفت إلى شرفتي كعادتي كل يوم، مرت نسمة هواء باردة تتخلل ملابسي، شعرت ببعض من الراحة الممزوجة بالألم الذي دام لسنوات يجتاح خافقي.

دار بمخيلتي هل عزيزي يشاهد الآن قرص الشمس البازغ كما اعتدنا أن نفعل عندما نلتقي تحت غصن الشجر؟

ولكن أين هو؟ أين من نبض له خافقي الآن؟ هل وافته المنية؟ ونال منه الحِمام بعد تلك الحرب التي أنهت الآمال والأحلام التي بنيناها وننتظر تحقيقها على أحر من الجمر، حربٌ قطعت وِصال الأحبة، وبعد أن كانت الأرض ممتلئة بالبساتين والخضرة المدهامتان، أصبحت جافة لا حياة فيها يكتسيها وشعبها الشجن.

أرى الأناس يسيرون بحزنٍ يُكبح بداخلهم، أرى دموعًا معكوفة بأعينهم، نظرة تتوجس منها انكسار

ما ذنبهم، ما ذنب أرض الوطن بأن يسود بها الخراب، ما ذنب أهالي الشهداء أن يفقدوا قطعة من فؤادهم، ما ذنب الشهداء أن تذهب روحهم فداءًا لوطن انتشرت الدماء على أرضها؛ لحمايتها من عدوٍ لا يملك من المشاعر رحمة!

ايتها الوطن، ايتها الدفء الغائب، لمَ يخيم الحزن سمائك؟ أليس من ذهبت أرواحهم لخالقهم فداءًا؛ لحماية أرضك النقية؟
لستِ وحدك ايتها الوطن؛ فقلوبنا تحتلها عاصفة القلب المغمور.
الذي استوطن فؤادي لا علم لي أيزال يلفح أنفاسه، أم تسكن روحه تحت الأتربة مع من وافتهم منيتهم، أعيش فقط على بصيص الأمل الذي يحدثني به فؤادي ولا يقبل بغيره.

هاجس ببالـي يداه الغيد تحتضـن انامليـ، حضنـه الدافئ الذي كان ملاذًا لـي، قُبلته التي يطبعهـا على يداي عند نزوله من الفـرس، آهٌ من الذكـريات التي لم تخلـو مخيـلتي منها يومًـا، تناثرت يا حبيـب وتركـت فؤادًا يئـن؟ وأعين مغرورقة بدمع الشوق!
أيا عزيزًا الازلت تذكـر الأيام السابقة التي لم أنساهـا يومًا؟ أم أني سأظل أحترق فوق الوتد؟ أعتقد أن انتظاري سيطول.

يا نسمات هواء ديسمبر أحملـي لـه كلماتي التي ألجمهـا؛ علَّه يشعر بي؛ فيعود ويداوي جرح روحي وخافقـي؛ من سنوات فقدانـه.

دلـفت لغرفتـي وجلست على أرضيـة الغرفة؛ أنتظر آذان الفجر؛ لأصلـي، حينئذ خرَّت دمعة شجية تتوسط خدّي كفكفتها،

كنت بالحاجة الملحة لشيء يريح روحي، ورأيت مصحفًا هرولت نحايته؛ فما أحسن من القرآن في سكينة الروح؟ وأول ما قابلني عندما فتحته قوله تعالى{وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا} رباه ما أرحمك، كم غنيتني بلطفك ورحمتك، وأنا الآن أجلس والقنوط يغلفُ روحي، رغم قولك ولا تقنطوا من رحمة اللَّه، ربي إني ظلمتُ نفسي وإن لم تغفر لي لأكونن من الخاسرين، تركت لك أمري كله، وأنا على يقين بأنك قريبٌ مجيب، أحفظه يا رب بعينيك التي لا تنام ولا حول ولا قوة إلا بك.

تخلل مسامعي آذان الفجر؛ فوقفت لتأدية الصلاة، ودعوت كعادتي له، وعندما انهيت جلست على الأريكة أستمع للقرآن المنبعث من المسجد وسبحان اللّه، أتعلمون ما هي الآية التي كان يقرأها مقيم الصلاة؟ {وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}.

كم ارتاحت روحي لهذه الآية، ربي إنك الرحيم مجيب الدعاء يقيني بك كبيرٌ يا رب.

أشعر بالطمئنان اليوم؛ لذلك رفعت همتي، واندفعت باجتهاد؛ لأحضر الطعام.

إن حالي ساء مؤخرًا؛ لذا علىّ البحث عن عمل فالمال المدخَّر لم يعد يكفي حاجتي.

في الثامنة صباحًا ذهبت إلى السوق؛ لأشتري حاجياتي، وأنا في طريقي صادفتني صديقتي منذ الثانوية كم مرّ عمرٌ طويل لم نلتقي! احتضنتها بحرارة، كانت جميلة وربما تغيرت ملامحها قليلًا، كان يبدو حالها ميسورًا، ثم أردفت لي بصوت مبهج "لقد شحبتي يا امرأة، لقد مرّ على لقائنا سبعة سنوات، تراكِ شحبتي لغيابي عنك؟ ماذا حدث لنضارتك وبهجتك؟ أرى امرأة يكسوها الدُجى لا أبريال صديقتي"

ابتسمت لها وطلبت منها أن نتحدث في المنزل، وعندما وصلنا لم أحبذ بداية الحديث أن تكون عني؛ فسألتُها عن حياتها "إني بأحسن حال ياصديقتي، أتذكرين الرجل الذي تقدم لخطبتي في آخر يوم لنا في الثانوية؟"

أومأت لها فتابعت "إنه كريمٌ عطي، إنه فتى أحلام الطفولة الذي لطالما حدثتك عنه، لم أجد في حنانه حنانًا، كما أن سلطته مرتفعة هناك، لا يبخل علىّ بشيء. صحيح غفلت عنك كيف حالك؟؟ وأين والدتك، هل تزوجتي، ولمَ يخيّم الحزن على محياك؟"

ابتسمت لها ثم أجبت " أولًا مبارك على زواجك، بارك اللَّه لكمها ورزقكما حياةً هنية ومليئة بينكما المودة والرحمة، ثانيًا والدتي رحمها اللَّه، توفيت بعد زواجي بشهرين"
أظهرت علامات الحزن والتسائل على محياها، علمت ما يجول بخاطرها فقصصت لها ما حدث، مع دموع لم أستطع كبتها.
اعتلتها الصدمة وسألتني لما تزوجته رغم علمي بأنه جندي، وسيذهب يومًا.
ويحك أهذا سؤال!!
"أتسألين لماذا؟ لأنه ياصديقتي رفيق فؤادي في لحظة ضيقه لأنه كان ملاذ وحدتي عندما فارقت أمي، لأنه من هشت له ملامحي وتهللت، لأنه من نبض له خافقي.
هو الجندي الحامي لي على الأرض المتهدجة، هو النبته اليافعة في بستان كله فسد، هو الناشب المتشبث بصميم فؤادي.

من همسة صوته أتهدج، ومن بسمة ثغره أجد بسمتي تفيقه اتساعًا.

هو الزمهرير في لحظةٍ ءانية، وهو الذي عند لمحي له توجس أيسري مشاعرٌ وايم اللَّه لم يشهدها يومًا.

فك عقالي من الشجن والضجر، ودنا حبورًا لروحي.

أتعتقدين أن ينسى خافقي محبتي؟ لا واللَّه هو راسخ في صميمه لا يزحزح، وحتى آخر نفس الحفه لن ينسى.

كنت عابرة سبيل سكن خافقي رجلٌ، رغم تهكم العالم أجمع على اختياري له"

لـوعة شوق.

رحلت صديقتي بعد إلحاحٍ منها أن أذهب معها؛ حتى لا أكون بمفردي هنا، ولكن رفضت بدون تفكير حتى، وكيف أذهب وربما حبيبي يأتي؟.
عند غروب الشمس أمسكت دفتري الذي أكتب له به وسردت له ما حدث منذ الصباح.

"اليوم مرَّ على فقدانك ثلاث أعوام وعشرون يومًا، ولتشهد ظلمات الليل شوقي لك طوال هذه المدة، لتشهد أوراقي وحبر قلمي كم ذرفت من أدمع؛ لشوقي لك، أخبرك أنه عند غيابك لبضعة من الدهر في هذا الوم توجس فؤادي خطرًا وكأنه علم أنك ستغيب كل هذه المدة، ألجم الألم ولا يعلم إلا الخالق كم أن شوقي وحنيني يؤلمني.
لقد عمَّ الغهيب أنحاء المنزل، هذا المنزل الذي كان يمتلئ بالقهقه، أصبح كومة غسق كأن الشمس غابت.

تـالله الشوق يفعل دهـره بالجسـد مالا تفعل الأسقـام، أعد الليالي التي تغيب فيها، وأنتظر يوم التلاقي عندما يتلفظ الأُناس لقد عاد لها وباغتهـا "

تنهـدت للمرة المائـة وأنا أنظر لعقارب الساعة، كم يسير الوقـت ببطئ!
ليتـك ترى حالي يامن أهواه، لقد ذبلت الزهرة التي ترعرعت وسط بساتين الأمل، ربـاه أرحني من ثقل الأيام.

بصيص أمل

استيقظت فجرًا كعادتي، وهممت بالصلاة راجيةً أن يأتي ساكن طيات روحي في أقرب وقت.

"إني يا رب قد وليتك كل ما اتمنى، إلهي لا تثني فيه شيئًا يؤلمني، أرجعه لي؛ فإنك على كل شيء قدير"

بكيت بكاءًا فاض من فؤادي قبل عيناي، سامحني يا اللَّه إذا بكيت على قضائك، نفذ صبري وضاقت نفسي، لكن معاذ الله أنا مايئست؛ لكنها تالله أيام ثقال، إشرح لي صدري يا رب واجمع بيني وبينه، واجعلني من الذين يتغلب يقينهم قدرهم ويسبشرون بالإجابة، إنك مجيب الدعاء.

ارتديت جلبابي وهممت بالخروج؛ للتسوق، لم أكن لأخرج ولكن الطعام بأكمله نفذ.

إن القرية اليوم مضطربة، أعتقدت أن دمارًا آخر سيشنّ حربًا على غارةٍ، ولكن على ما يبدو ليس الأمر كذلك؛ فالقرية لا

يشوبها غرباء أو أعداء في هذه اللحظة، لم أكن لأعبأ بالأمر؛ ولكن أثارت حركة الناس وتشمّرهم فضولي.

لم أعرف من أسأل؛ فالجميع يسيرون بحفاوة، لمحت جارتي واقفة تحت الأجمة، تبدو متبلدة والكدّ على محياها واضح، لقد مرّ وقتٌ طويل لم ألتقي بها؛ فمنذ اليوم الذي أخذ أبنها وزوجي في الأسر والشجن يغلف أفئدتنا، ولكنها تبدو كمن سمع خبرًا صادم، ولا تبدو أنها تراني حتى، رباه سلّم.

انطلقت قاصدة وجهتها ورمقتها لثواني ثم تحدثت

" السلام عليكِ يا خالة، ماذا دهاكِ ودهى الناس؟ أتحتاجين شيئًا أساعدكِ فيه؟ "

نظرت لي وكأنها عادت للواقع مرة أخرى، وعيناها تنم بانهمار الدموع.

"الحرب يا ابنتي"

أي حرب؟ انتظرت تفسيرًا منها وعلمت هي بعدم إدراكي ما تقول فتابعت "أتذكرين هذا اليوم؟ عندما انتشر الفساد أنحاء البلاء، وأخذ الذين قلوبهم موبوءة من يدافعون على الأرض الوطن؟"

شعرت بخوفٍ فما علاقة هذا بوضع القرية الآن ثم أجبتها بتوتر" وهل هذا اليوم يُسلى يا خالة؟ بالطبع أذكر"

" لقد عاد الأسرى، ولكن أكثر من نصفهم وافتهم المنية"

لم أكد أدرك شيئًا، ما الذي تهزين به يا خالة؟ مزيجٌ من الرعب يتسلل داخلي، هل سيكون من الذين وافتهم منيتهم؟ مازالت أتمسك ببصيص الأمل، لن تذهب دعواتي سدى، استجمعت قواي وأمسكت بيد الخالة بعد أن علمت منها أن الأسرى في الجنوب الآن وإن من تبقَ سيأتي إلى أهله لا محال، ثم حثثتها على الذهاب إلى المنزل؛ فهي في حالةٍ لا يرثى لها والكدّ يسيطر عليها، رغم أني لا أقل قلقًا منها.

أخذت الخالة إلى منزلي، جلست بجورها أحثها على التمسك بالأمل، هدأت واستأذنت بالرحيل، وهذا ربما جيد لي؛ لأني بالحاجة الملحة أن أجلس بمفردي.

الساعة الخامسة عصرًا، دلفت للشرفة أنظر للسماء، كانت صافية لا يشوبها شيء، الشمس تميل إلى الغروب، إنها أحب الأوقات لي، خطوت إلى الغرفة بخطى وئيدة، ذهني شارد جدًا، أشعر باقتراب الأمل.

قرأت بعض آيات القرآن، وظللت ألح على اللَّه بدعواتي، إن أملي فاق يأسي، سيعود مالك الفؤاد سالمًا آمنًا بإذن اللَّه.

أخـذت أجول في كل ركن من أركان المنزل، أنظر إلـى نفسي في المرآة، هذا العقد الذي أهداه لـي في الربيع منذ أربعة سنوات، هذه ملابسـه مازلت تحمل عبقـه، كل شيء يحمل ذكرى لـه أخذت أفتش عنه، صوره ربـاه! مبسمـه الهادئ، خصلات شعره السوداء، قوامـه، وصدره الفسيح، هنـا كان يقطتف الورد لـي، أتذكر بسمته وهو يشمِّر عن ساعديه وينظر لـي، لم أشعر بماء عينيّ، حتى استعدت واقعي وكفكفت أدمعي، أفتقد أشياؤه الصغرى، أفتقد يداه التي تضماني برحابة صدر، هنا في الركن كتبه التي كنـا نقرأها يوميًا على هذا المقعد في الزاوية، ألا يا ليت المفقود يعود، ألا يا ليت الليت يكن يا حبيب الروح والفؤاد.

لم أشعر بالوقت الذي استغرقته وأنا أفتش في أركان المنزل، حتى غفلت على المقعد ولم أشعر إلا بصوت أزعج راحتي، هناك من يخفق على البابِ ويكاد أن يكسـره رباه من سيأتـي لي في هذا الوقت!!

أرتديت جلبابي والخمار، والخوف ينهش جسدي، رباه سلّم.

إنـه هـو

هل تعلمون من يقف أمامي الآن؟ إنه ابن الخالة، هو صديق زوجي الذي أخذ معه، لكن أين زوجي؟ أخذت أنظر يمنى ويسرى؛ عسى أن أرى طيف زوجي، لكن لا أثر له، نظرت للواقف أمامي، فقط ينظر إلى الأرضية لا يتحدث، بعد برهة وأنا واقفة أنتظر جوابًا منه والشوق ينهش بداخلي، أما خوفي فقد بلغ منتهاه، تنحنح وقال لي: السلام عليكِ يا أختاه، أبشرك لقد عدنا جميعًا إلا ممن وافتهم المنية من الأسر والحمدلله، زوجك بخير؛ لكن هناك جرحًا في قدميه يعيقان تحركه، الإصابة باللغة فلا يستطيع التحرك، وأبى أن ينتظر إتمام علاجه؛ للهفته على رأياك الآن هو في منزل صديق وحثتي على أن أصحبك إليه.

هل أنا في حلمٍ، ولا أدرك إن كان هذا واقعًا فيخيل لي ما سمعته من برهة؟ أم أن الألم أشتد بدواخلي فتسابقت هواجسي آبقة من واقع أليم؟ هل تراوغني نفسي؟

إنـه هـو، هـو أمامـي الآن.
فـي هذا اليوم المشهود، وعلى العهود للموعـود من الرب المعبود، تلتقي أرواح تبتلـت لرب الوجود.

لقـد التقينـا، خررت أسجد لله والدموع تتسابق، هو لا يقل عن حالتي شيئًا، كانت البسمة تزين ثغره بُشرًا، مسح أدمعي بكفيه الناعمتين وحثني أن أتريث، أما أنا فقد لججت وكلمها هدئت تهانفت مجددًا.
كيف أهدأ يا عزيز؟ جئت لبعثرة شتات نفسي؟ لم يخب ظني باللَّه فواللَّه لم أنسك في دعائي، وكيـف أنسى المعكوف بأيسري؟ أينسى المحب حبيـبـه؟ لاتغرنَّـك دمعـي؛ فخالقي استجاب لدعائي، وما هي إلا دمـع غبطة، أُقرَّ عينـي بقدومك، أرحت خافقـي الذي ينبض، أيا عزيزًا هـل أعاتـب الدهر علـى سيل دمعي؛ على غيبتك؟

والمولى عز وجل يشهد محبتـي لك التي بلغت العنان، ومعجمي لاتكفـي كلماتـه لمحبتـي لـك أيا جنديّ الحامي، اغروروقت عيناي عند يقيني بأنك أتيت، أنـا ركيكة واهنـة ومعك لا يغلبني شـيء، يشهد اللّه كم تهللت ملامحـي عندمـا أيقنت بوجودك، تشهد أصابعـي وأحرفـي التي تناثرت؛ عند شوقـي لك. وبعد أن ذبلت التـي ترعرعت وسـط البساتيـن، أتت الشمس بحلوهـا واستعادت الزهرة عافيتها، اكتسيـت ثوب السعادة بعد قدومـك، ومال حالـي ميلًا يعجب لـه كل من رأنـي، أهكذا يفعل بنا الهـوى؟ أهكذا يفعل بنـا الشوق؟

لم أدرك كم من الوقت مضى وأنا بين أحضانه، لا شيء يُسمع إلا شهقاتي المتتالية، وهو يضمني بقوة فقط.

" يا حبيبة الفؤاد، يا بهجة النفس، يا بسمة الحياة لي، لم يتعبني شيئًا كما أتعبني فراقكِ، كل يومٍ استيقظت على أملٍ أن أراكِ، كلما خلوت بنفسي أتذكر هواجس تلك الليلة التي باعدت بيني وبينكِ أتذكر رائحة الرماد في كل ركن، ليس فقط الرماد الذي نشب من تلك الحرب التي أهلكت كل أركان القرية وباعدت بيننا، بل رماد فؤادي الذي يتقطع أنياطه كل ليلة؛ لخوفي عليكِ، لم تكن نقمة الحبس تؤلم، بل نقمة بعدي عنكِ هي التي تؤذي جرشيتي.

أُمضي كل ليلةٍ تحت ضوء القمر أسبح في شجوني آيسًا، لم تمر الأيام عليّ يا حبيبة روحي مرور الكرام، كان الجميع يخبرني باستحالة العودة مجددًا، والكلام هذا يجرِّعني الغيظ، وما يلقى عليّ من هذا القول الذي ينطلق على أذني كأنه جمرٌ،

وايم اللَّه يا أميرة عهدي لم أفتقد شيئًا سواكِ، ومن سواكِ لي يا روحًا تكملني، من سواكِ يقاسمني صفوة الحبِ؟ "

ابتسمت، واكتسى خداي لونًا معصفرًا، ثم نظرت إلى عينيه كانتا تحملان ألمًا كبيرًا، ضممت يداه بيديّ، وأفصحت له عن ما بداخلي.

" عاد الحبيب إلى منزله، وانسدل الستار؛ ليفرج عن شمس الحياة من جديد أحقًا هذا يحدث؟ أنت الآن هنا أراك بعد طول الغياب؟

أتيت وكأن نورًا أتى وأنار عتمتي وعتمتة المنزل بدونك، دعوت اللَّه بكل ما تبقّى لي أن أراك، وهاقد استجاب خالقي لدعائي وأتيت.

رأيت حلمًا كنت معتكفًا به، رأيت حلم الأمس برأياك،

ودعوت اللَّه أن تحقق لي حُلمي وتأتي هفا من الريح، قالوا لي هي أضغاث أحلامًا أن أراك مجدد وحولت؛ لكن اللَّه يأتي بقدرًا بعد الصبر يدهشك، كنتُ متهكنة بمجيئك يا مهجة فؤادي، وقد أتيت ولم يخب ظني، كتبت لك الترانيم والأراجيزا، كتبت لك بمشاعرٍ لم أشهدها يومًا إلا معك، كتبت لك وأنا في أقصى شعوري بوجدان الألم في تضني، كتبت لك بسلاسة، لم أشهدها يوما.

تركت العنان لقلمي؛ ليعبر لك عن هيامي بك، وران فؤادي الذي تتراقص أنت على أوتاره.

كبحر الفراتِ أنت عذب، كملك أنت أبلج، كلوحة دافينشي، كمعزوفة بيتهوفن، كمنجم الماس، جمالك نادر.

مقلتاك كالجواهر أحبها، كحب المرأة وانجزابها للحلي، إني لأجل مقلتاك أعيش، بهما كوكبٌ دريٌ، عندما أنظر إليهما أسبَّح بحمد اللَّه على خلقه، أنت جميل كلوحات بيكاسوا، أنت أجمل الأنام فى عيناىّ."

عـاد الديسـق للحياة من جديد، شُفيت ساق زوجـي، وعاد يجلب لـي الورد كما كان يفعل سابقًا.
اليوم مضـت شهور على رجوعـه، ومازلت كـل يومٍ أنظر إليـه مطولًا؛ لأتأكـد أنه عاد، لا يلومنـي أحد؛ فالذي مررت بـه بدونه لم يكـن هينًا، كان يباغتني بالهدايا يوميًا؛ ليعوضنـي عن مرارة الأيام التي مرّت بدونـه، كنت أسجد شكرًا لله كـل ليلة، وأحمده على عطائـه، حياتي ازدهرت من جديد، وثوب الشجن نزعتـه لتصبـح أيامي طوبـى.

إنه الربيع، المساء صافية لا يشوبـها شيء إلا من السحاب المتفرقـة، لقد اصطحبني زوجي؛ لتمتع بمنظر الزهور في الحديقة، مضت ثلاثة دقائق لم أراه؛ فهو ذهب ليحضر لي شيئًا لا أعلمه، ولم يرضى أن يصطحبني؛ حتى تكون مفاجأةً لـي، حسنًا سيبدوا هذا جنونًا؛ ولكن اشتقت له، حاولت صرف

تفكيري عنه وانشغالت برؤية الزهور؛ لكن يعود مجددًا ويستولي على تفكيري، ويح الدقائق كانت تمضي وكأنها سنوات، يالا تعسف الوقت عند الشوق، حسنًا أشعر بلهفة تجتاحني، لهفة لأن ارتمي بين أحضانه، واستمع لترانيم صوته وهو يمدحني مرةً أخرى.

سرت في الطرقات بحثاوة، هذا هو الوقت الذي اتفقنا على أن نجتمع به، ولو بيدي لصعدت صاروخًا يوصلني إلى أحضانه في ثانية، إنني أفتقده كل ثانية، ولا يلام المشتاق عند شوقه.

بعد عشرة دقائق من السير وصلت إلى المكان الذي اتفقنا عليه، وأخذت أدجّ رأسي يمنى ويسرى وعينايَّ كلها شوق؛ لرؤيته.

وقفت تحت الشجرة التي قال لي حبيب فؤادي أن أقف عنها، وشعرت بغيد شيء خلفي، فجأة احتضني! نعم هو محبوبي شعرت بدفء يديه وهي تضم جسدي، كم أصبح ركيكة عند حضوره، لقد ضاعت كل كلمات الحب التي كنت سأبوح بها

لـه؛ عندمـا ضمني.

تنحنح وهمس عند أذنـي أحبك_أما أنا فكدت أشعر بحرارة جرشيتي، شعرت بطوبـى فؤادي، كم أن هذا الشعور يجلعنـي اتبسم كفتاةٍ التقت بعقيدهـا، كم أن أسدام الهيام يسلس!

التفت لـي وتأمل عيناي وأنا كذلك، وبقينا على هذا الحـال، فمـا حاجة الحديث والعيون نواطق؟ فكم من كلام ظلَّ في القلب كامنًا، وكم من عيونٍ بالكلام سوابقـه.

أهداني صندوقًا ثقيلًا لم يرضى أن أفتحه قبل عودتنا إلى المنزل، ثم قبّل ظهر يداي وقال: "وجدت من الورود أنوعًا ولم أجد أجمل منكِ وردةً، كزهرة الأوركيد أنتِ حسناء، وأنا للأوركيد خاضعٌ، كزهرة الذنبق ثغرك زهري فاتنٌ، ذاب فؤادي لمبسك؛ فوجهك كالبدر يبدو عند تبسمك، وعيناكِ سهم يداوي موضع الألم، ياسيدة الحسن كفاكِ تجملًا كالزهر؛ فالورد من بهاء سيدته يزبل، وفكيف يبقى وسيدة الحسن سرقت كل محاسن الوردِ؟"

رباه! أجزم أن فؤادي سينقلع من أضلاعه، لما ينعقد لساني عندما أرى عيناه؟ ماذا عليّ القول الآن، أنا مغرمة به، رباه!!

بعد فترة من عجز لساني عن النطق، تركت العنان لفؤادي ليتحدث" أتعلم؟ بعض الدقائق مضت؛ لكن يا حبيب الروح لعاشق ولهان ليست عليّ بهينة، أصبت بداءٍ، ليس داء العلَّه بل داء الشوق لعيناك وتقاسيم وجهك.

أهلًا ومرحبًا بداءٍ إن كانت رؤياك دواءًا، وفي عشقك ما أجمل بلوتي، كل زهرةٍ أراها أتذكر عيناك، عيناك! غائرتان كزهرة السوزان هما سودويتان، وأنا؟ وأنا غارقة بهما لا أرجو يومًا النجاة"

أحتضنًا في عناق قوي وهمس لي"كم أحبك".

جلسنا تحت الشجرة، واتكئت على كتفه والابتسامة لا تفارق ثغري.
لمحت فتاةً ذات شعر قرمزي تنظر لحبيبي الويل لها!!
نظر زوجي إلى ما أنظر فاعتقدت الفتاة أنه يهيم بها! فأحنت وجهها وتبسمت ويحك يا ذات الأنف الأفطس! وقفت لألقنها درسًا؛ حتى لا تنظر إلى زوجي مجددًا، وعندما أدرك زوجي ما يحدث سحبني نحوه وهو يقهقه؛ بسبب وجهي الذي أصبح كتلة من الشرار، ثم أحضنتي وقال: "أتغار بندورتي العزيزة؟ "
"ويلٌ لك أتسألني هل أغار!! إني وايم اللّه أغار عليك من امرأة تناظرك، ومن أنام يحيطون بك، وأنا التي وددت أن أحيطك بين أضلعي دائًما، أغار من مرآة تنظر لها يوميًا، ومن نسمة هواء تجدد لك أملك، أغار من حدقة تناظرك، ومن يدٍ تصافحك، لا أغار بل أحترق كالجمر، ألا يدركون أنك لي؟ ويلٌ لكل امرأة تناظرك وتتبسم لك، ويلٌ لهذه الحمقاء"

أوشكت دموعي أن تتساقط، فأسرع واحضنتني، ثم قبل جبهتي، وهمس لي بدفء " تالله ما تجذبني إلا امرأة واحدة وهي أنتِ، ليس بمقدرتي فعل شيء إلا الوقوع في بحر عيناكِ طوعًا ورغمًا، أسمكِ إن نُطق دقات فؤادي تدق، وثغري يتبسم، صرفتُ نظري عن جميع نساء الأرض؛ فأنا أملك الملكة ذات الجمال، والعفّة، والروح الطيبة.

في خدّيكِ رونقه ونفحه يتهادى من محياكِ، لا أستسيغ حياتي دون مرآكِ يا حبيبة الروح، بعدكِ يصيب قلبي بعلَّة، وما لي غير قربكِ من طبيب، فمما تغارين وأنتِ حبيبة الروح؟ "

تسللت كلماته بداخلي فمحت شظايا غضبي ولانت ملامحي، كم هو لين، وطبيبًا لجروحي، كم أن كلماته تحتضن ثنايا فؤادي، كم هو رقيق، رباه احفظه لي.

عدنا إلى المنزل، وأنا في أوج سعادتي؛ فالصندوق كان يحمل كل ما أحب، قبلتُ خده، وأخذت أحتضنه، ثم غفلت بين أحضانه، كنت أشعر بيداه تداعب خصلات شعري.

عندما استيقظت لم أجده بين أحضانه، نظرت في كل الأركان؛ لعلي أجده، سمعت صوتًا في الخارج، وعلمت أنه يحضر الطعام؛ فهذه عادته يستيقظ باكرًا ويحضر الطعام.

دلفت ناحيته فابتسم وترك ما بيده ثم أسرع باتجاهي يقبّلني.

"أحبك"

بعد سبع سنوات، لقد مرّت علينا بسعادة؛ فما الذي يحزننا ونحن معًا؟

زوجي الآن في العمل أشتاق له وأنتظر عودته بلهفةٍ، لقد غفلت عن شيءٍ، لقد أنجبت طفلتنا، إنها تشبه أباها كثيرًا، لا أخفي عليكم إني أغار منها؛ فهي كل يوم عند عودة زوجي تسرق الحضن الأول منه، أما أنا أتذمر، ويخبرني زوجي أنني طفلة، هل أبدو طفلة؛ لأني فقط أغار من ابنتي؟ حسنًا لقد نامت ابنتي وسيكون الحضن الأول منه لي، أشعر بالأنتصار، ولا يهم إن قال لي أنني طفلة.

كنت أجلس بملل أنتظر الساعات أن تمر على هفاوة، لم أجد شيئًا أفعله حتى وقعت عيناي على دفتر المحبة، سميّته بهذا الأسم؛ لأنه يحمل جزءًا من مشاعري، هل أسرد لكم بعضًا مما بداخله؟ حسنًا.

دفتر المحبَّة

" عـاد الشفق يكتسح السماء؛ ليظهر طيف القمـر، انطلقت بسرعةٍ؛ حتـى أخبره أن الشفق عاد، هذا الوقت نتراقـص تحت ضوء القمر الخافت، حتى يغطي الغسق أنحـاء السماء.
هنـا نحن نتراقـص كعادتنـا كل ليلة، القمر يشاهـدنـا نتلوا أراجيزا محبتنـا.
يسيـر يمنى ويسـرى ثـم يجذبنـي نحوه مجددًا، فـأقبـع بين ذراعيـهِ وأقهقـه، وأشعـر بتسـلل بسمتـه، وضيـق جفـنه، يخبرنـي دائمًـا أن قهقهتـي تسعـده، لا يعلـم أنني أُقهقـه؛ لأرى بسمتـه.
تساقـطت قطرات المرمرة، لـم تكـن قطرات السمـاء تعيـق رقصنـا بـل زادتنـا حماسًـا.
حينمـا تعبنـا جلسنـا على الأرضِ والنشوة بداخلـنا تفضحنـا، فتتسل البسمـة على شفاة كـل منًا.
عندمـا أكتسـى الظـلام السماء، حملنـي بين يديـه، آهٌ أشعـر كأنني ملكـةً يحملهـا الأمير، كم إني أهيم بـه كهيام المرأة العَروب "

" يغرقني شيئًا فشيئًا، وأتوه كطفلًا يبحث عن السنا، فيجد ضوءًا لامعًا كضوء القمر في ليلة الغسق، محبوبي صاحب حدقتان فاقتا الجمال، لم يبدو لي يومًا كبشر عابر، كان جزءًا لا يجزء لي، أغرق في تفاصيله، ولو جُمعت أبجدية المزن كُلها لما اكتفت من جمال خصلاته، تناسق ملابسه، حُسن وجهه، نظراته الفاتنة، كل شيء فيه مستوحى من عبارات جمالٍ.
ساكن ثنايا فؤادي وروحي، لن تكفي كلماتي في وصف رزانته، وثباته، لم أجد شيئًا فيه يُعاب، هو سبحان خالقه، سبحان من أعطاه ملامح فاتنة.
أجد دومًا فيه عالمًا يحتويني، من سوء أيامي، كان ويكون لي زهرةً قرمزية تفتحت؛ لترسم البهجة والحبور بدواخلي، عينيّ دائمًا هي من تراه، وفؤادي يرتجف في كل مرة. "

" هل يسهو الحبيب محبته؟ لا واللَّه يبقى راسخ بالفؤاد حتى آخر نفس يلحفه، وايم اللَّه كما محبتي له لا تنتهي إلا بِشروق الشمس من مغربها، وصغائر الأمور التي يفعلها تبقى محفورة بصميم الفؤادي.

هو الزاهي المفعم بالبهجة، تتهلل له قسمات وجهي عند رؤيتي مبسمه، وعيناه، أنا الركيكة إبان تلاقي عيناي بعيناه، تالله لا يمضي شيئًا بسيطًا يفعله على خافقي مرور الكِرام، كملمس بيداه الغيد، وإعطائه لي زهرةً بعبقٍ أخاذ، وما أنا إلا عابرة تصل لزروة سعادتها؛ لرؤياه. "

" عندما تلتقي عيناه بمقلتاي، ورنين صوته يتبعثر بدواخلي حتى تتزعزع أنفاسي، وتضطربت روحي معكوفتًا؛ لسلسبيل صوته الأعجف، وكأنه خُلق من نطفة وردةٍ كستنائية أعادت لروحي البهجة، رنينٍ كان ويكون لي حضنًا دافئًا.

لحظةٌ التقتت أنفاسي عبقًا، كعبق رائحته واجبة أن تُخلد لعقدٍ آخر.
صوت الأجمعين على مسامعي آسن، وصوت ملاذ فؤادي عذبٌ كالسلسبيل، بسمة طفيفة على ثغره ترسم أضعافُها أضعافًا على ثغري، سبحان خالقه، سبحانه على خلقِ ملامحه الرزينة.
هذه لحظتي المتربصة، الحظة التي أهيمُ بها عشقًا؛ لرُأيا عينايّ عيناه. "

"يوم مولد ابنتنا السابع، ولدت مع أباها في ديسمبر، هما دفء ديسمبر البارد.
أحضر لنا زوجي الكثير من الحلوة، ابنتي هي صاحبة الميلاد لذا تستولي على حضن زوجي الآن كم هي خبيثة!
رفعت رأسي بخيلاء تسري في عروقي، ونظرت لهما ثم زمجرت وقلت بصوتٍ عالٍ بعض الشيء" لن تأكلان من الحلوة اليوم" وصاحت ابنتي الخبيثة بأمي! حسنًا لم أكن أريد أن ازعجها في يوم مولدها؛ لذلك استسلمت وتركتهما يحظيان بحضن بعضهما؛ ولكن أقسمت بداخلي أنني سأحرمهما من حلوى غدًا، كيف يحتضان بعضهما ولا يفكران باحتضاني حتى؟

كان الجو باردًا؛ لكن الدفء بيننا لم يُشعرنا بشيء، شعرت بسعادة بالغة، وكيف لا أسعد ومعي الآن كل ما تمنيت؟

زوجي وساكن ثنايا ترائبي، وابنتي الحبيبة، هذا اليوم ليس عاديًا؛ فما شعرت به اليوم لا استطيع وصفه هنا في دفتر المحبة.

بحثت في كل المعاجم؛ لأجد كلماتٍ تعبر عن شعور اليوم ولم أجد.

هو يبتسم لي آهٌ، كيف لفؤادي أن يتحمل مبسمه؟ إن الهيام لا يكفي لما أحمله بداخلي، ما أحمله أكبر من عشق وهيام، أكبر بأضعافهم.

أكتب هذا اليوم خصوصًا هنا؛ لأنه ليس بيومٍ كسائر الأيام، النشوة بداخلنا نحن الثلاثة لم تقل، والبسمة لم تفارق ثغر أحد منَّا.

هذه آخر ورقة أكتبها في كتاب الأماني، كتابًا حمل جزءًا من مشاعر مكبوتة بداخلي، شهد ظلمة وغسق أيامي في السنين التي فقدت ساكن روحي وترائبي، وشهد بهجةً عندما عاد، وعندما رزقني اللَّه بابنتي الحبيبة، الحمدللَّه على رزقه دائمًا وأبدًا "

أغلقت الكتاب ولم أشعر بدموعي التي انهمرت، كم أن الأيام تسير بهفاوة.
كفكفت ماء عيني عندما استمعت لصوت الباب ها قد أتى الحبيب، انتلقت بسرعة؛ لأحتضنه وألتمس دفء زراعيه.

سيبقى هو دفء زمهرير الشتاء، والحبيب الأبدي.

الخِتام.

تـم بحمد اللَّه.